

( ١ )

## أسباب التوتّر الطائفي

من سنن الله - سبحانه وتعالى - في الخلق، وفي الاجتماع الإنساني قيام العلاقات - علاقات الاقتران - بين «النعم» وبين «الابتلاءات والامتحانات والاختبارات» . .

ففي نعمة الأولاد فتنة واختبار . . وكذلك الحال مع نعمة المال والغنى والثراء . . ومع نعمة الجاه والسلطان . . ومع نعمة العافية والقوة في الأبدان . . ومع نعمة إقبال الدنيا وزينتها على الناس - أفراداً . . وطبقات . . وشعوباً وأمماً . . وحضارات . . .  
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] . .  
﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] . .

وذلك ليتم الابتلاء والاختبار والامتحان للناس، ويتميز الطيب من الخبيث، والصالح من الطالح، والمجاهدون على طريق الخيرات من الذين سقطوا ويسقطون في الابتلاءات والاختبارات . .

\* ولما كانت التعددية التي جعلها الله - سبحانه وتعالى - قانوناً وسنة لا تبديل لها ولا تحويل - في كل عوالم الخلق، وفي كل مكونات الاجتماع الإنساني - هي من أعظم نعم الله - سبحانه وتعالى -، لتحقيقها الحرية . . والسعة . . واستنفار الطاقات للتسابق في ميادين الإبداع . . والتنوع الذي يحقق جمال التمايز في الأفكار والأعمال وطرق التنافس في هذه الحياة - كان الاقتران بين نعمة التعددية هذه وبين الابتلاء بها والاختبار فيها، ليمتيز الراشدون الذين يوظفونها في التكامل والتوازن والتزامن والبناء من الذين يجعلونها سبيلاً للتناحر والتقاتل والتشردم والتفتيت .

\* ولأن الشريعة الإسلامية ، والحضارة الإسلامية التي أثمرتها وبنتها هذه الشريعة ، قد وضعت سنة التعدد في الممارسة والتطبيق<sup>(١)</sup> . . فبنت أمة متعددة في الشرائع والديانات . . وفي الألسن واللغات والقوميات . . وفي المذاهب والفلسفات . . وفي الألوان والأجناس . . كما أقامت للإسلام داراً متعددة الأقاليم والأوطان والولايات . . وصنعت لهذه الأمة ثقافة متعددة المناهج والاتجاهات وميادين الإبداع . . كان طبيعياً اقتران نعمة التعدد هذه بألوان من ابتلاءات التوترات بين فرقاء هذه التعددية ، امتحاناً لهؤلاء الفرقاء ، حتى يتبين ويمتاز الساعون إلى توظيف التعدد في التكامل والتوازن بين الذين سقطوا ويسقطون في مستنقعات التناحر والتناز والتقاتل والتصارع والتشردم والتفتت . .

\* إذن . . فليس غريباً أن يشهد تاريخنا أو حاضرننا توترات بين مكونات الأمة - المدينة . . والقومية . . والوطنية - . . وإنما الأهم هو البحث عن أسباب هذه التوترات . . والأخذ بطرق العلاج التي تداوى ما ينشأ عنها من آثار .

\* وفي حدود ما قرأت - حول التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي ، القديم منه والحديث - فإن ما كتبه المفكر المسيحي اللبناني المرموق الدكتور جورج قرم - حول الأقليات المسيحية في التاريخ الإسلامي - كان ولا يزال - أدق وأعمق ما كتب في هذا الميدان . . وذلك فضلاً عن أنه «شهادة شاهد من أهلها» - أهل هذه الأقليات الدينية التي عاشت في إطار أمة الإسلام . .

لقد رصد الرجل ظاهرة التوتر الديني والطائفي - التي قال إنها كانت محدودة وعابرة - فأرجعها إلى عوامل ثلاثة . . وذلك عندما قال :

«إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة ، وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

**العامل الأول :** هو مزاج الخلفاء الشخصي ، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الالذميون وقعا في عهد المتوكل العباسي [٢٠٦ - ٢٤٧هـ - ٨٢١ - ٨٦١م] الخليفة الميال

(١) انظر كتابنا : [الإسلام والتعددية : التنوع والاختلاف في إطار الوحدة] طبعة القاهرة - مكتبة الشروق الدولية سنة ٢٠٠٧م .

بطبعه إلى التعصب والقسوة، وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله [٣٧٥-٤١١ هـ ٩٨٥ - ١٠٢١ م] الذي غالى في التصرف معهم بشدة . - [وكلا الحاكمين عم اضطهادهما قطاعات كبرى من المسلمين!!] - . .

**العامل الثانى:** هو تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار .

**أما العامل الثالث:** فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلاد الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة . .

إن الحكام الأجانب - بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب - وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضاً، حيث أظهرت أبحاث «جب» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى قد أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠ م، وبين الموارنة والدروز فى جبل لبنان سنة ١٨٤٠ م وسنة ١٨٦٠ م .

ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها، فى أماكن عديدة، أعمال نأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التى تعاونت مع الغازى . .

بل إن كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سبباً فى نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز، وفى مراعاتهم وتمييزهم إلى حد الصفاقة، أحياناً، لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة . .<sup>(١)</sup>

تلك شهادة شاهد من أهلها على حجم . . ومدد . . وأسباب التوتر الدينى والطائفى فى تاريخنا الإسلامى .

(١) جورج قرم: [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسولوجية وقانونية مقارنة] ص ٢١١ - ٢٢٤ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م . والنقل عن: د. سعد الدين إبراهيم: [الملل والنحل والأعراق] ص ٧٢٩، ٧٣٠ - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م .